﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ٧١﴾ [طه: 71]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

انحراف مسيرة التّحدّي بسجود السّحرة وتوبتهم

بعد أن ذكر في الآية السَّابقة مشهد إيمان السّحرة وسجودهم لله، ناسب أن يذكر في هذه الآية المشهد المنتظر ممَّن كان ينتظر النَّصر المبين من السحرة المجلوبين، وما توعّد به فرعون أولئك السّحرة الذين أعلنوا إيمانهم أمام الملأ، فكيف آمن هؤلاء وهم الذين عقد عليهم فرعون الأمل في النّصر على موسى، وما سيأتي به من خوارق العادات؛ فتوعّدهم بأشدّ العذاب، فهو انتقالٌ من مشهدٍ إلى مشهدٍ أعجب منه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَاذَنَ﴾ (أذن) أَصْلانِ مُتَقارِبانِ في المَعْنَى مُتَباعِدانِ في اللَّفْظِ، أَحَدُهُما أُذُنُ كُلِّ ذي أُذُنٍ، والآخَرُ العِلْمُ، أَذِنْت لَهُ في كذا أَطلَقت لَهُ فِعْلَهُ والاِسْمُ الإِذْنُ ويَكونُ الأَمرُ إِذَنًا، وكَذا الإِرادَةُ نَحْوُ: بِإِذْنِ اللهِ، وأَذِنْت لِلْعَبْدِ في التِّجارَةِ فهوَ مَأْذونٌ لَهُ، وأذن بالشَّيْءِ إِذَنًا وأَذَنًا وأَذانًا وأَذانَةً: عَلِمَ به، وفَعله بإِذْني وأَذَني؛ أيْ: بعِلْمي، وأَذِنَ له في الشَّيْءِ إِذَنًا: أَباحَه له، واسْتأْذَنَه: طَلَبَ منه الإِذْنَ، وأَذِنَ لَهُ عليه: أَخَذَ لَه منه الإِذْنَ، وأَذِنَ إِلَيه أَذَنًا: اسْتَمَع، وأَذِنَ لِلَّهْوِ: اسْتَمَع ومالَ، والإِذْنُ في الشّيء: السَّماح[1]؛ وهو المُراد به في هذه الآية؛ أي: قبل أن أسمح لكم.

(1) ابن سِيدَهْ، المحكم، والأصفهانيّ، المفردات: (أذن).

2) ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾: (صلب) أصلٌ، والصُّلْبُ: الشّديد، والصَّلْبُ: تعليق الإنسان للقتل، قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ [النساء: 157]، والصَّليبُ: أصله الخشب الذي يُصْلَبُ عليه[1]، والمقصود في الآية: لأُعلِّقَنَّكم للقتل.

3) ﴿جُذُوعِ﴾: (جذع) ثَلاثَةُ أُصولٍ: أَحَدُها يَدُلُّ على حُدوثِ السِّنِّ وطَراوَتِه، والأَصْلُ الثَّاني: جِذْعُ الشَّجَرَةِ، والثَّالِثُ: الجَذْعُ، مِنْ قَوْلِكَ جَذَعْتُ الشَّيْءَ إذا دَلَّكْتَهُ؛ وجذع النّخلة: عودُها، وجمعه جُذوع، وجَذَعْتُهُ: قطعتَه قَطْعَ الجِذع[2]، والمعنى المقصود في الآية: هو عود النخلة.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

عنوان الظَّالمين الوعيد والتَّهديد والتَّعذيب الشَّديد

بيَّنت الآية الكريمة ما تَوَعَّد فرعون به السّحرة، بعد أن خرّوا لله تعالى ساجدين: فأنكر عليهم ذلك واتّهمهم بخيانته والتآمر عليه كونهم آمنوا بموسى وصدقوه في دعوته قبل أن يأذن لهم بذلك، وجعل انقيادهم لموسى دليلًا على أنّه كبيرُهم ومعلِّمُهم فنون السّحر، وكان غرض فرعون من هذا القول صرف النَّاس عن التأسّي بهم، والإيمان بما آمنوا به، ثمّ إنّه اقتضى أن يظهر أمام قومه بمظهر الثابت والمتماسك بعد أن استبدّ به وبهم الخوف والهلع، من هول ما رأوه[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئناف البيانيّ:

ردودُ أفعالِ الطُّغاة على مُخالفيهم خارجةٌ عن نطاقِ القَبول

فُصلت جملة: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ عن الجملة التي قبلها: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ لما بينهما من شبه كمال الاتّصال، فإنَّ إعلان السَّحَرة عن إيمانِهم بربِّ هارون وموسى، وهو على النَّقيضِ

(1) الخليل، العين، وابن سِيدَهْ، المُحكَم، والأصفهانيّ، المفردات: (صلب).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مجمل اللغة، والأصفهَانيّ، المفردات: (جذع).
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 128.

ممَّا أراده فرعون، يُثير سؤالًا عن موقفه من إيمانِهم، وما الذي قاله وفعله بعد ذلك؛ فإنَّ شأنَ مثل هذا الصَّنيعِ أن يُحرِّك كوامنَ النُّفوس؛ فتسأل ماذا كان رد فرعون؟ فيأتي الجواب بهذه الجملة المتوالية في معانيها ودلالاتها.

فائدة التّعبير بفعل ﴿قَالَ﴾:

الحقُّ منبلجٌ في لسانِ والباطلُ منفلجٌ في آخر

اختار النَّظم فعل ﴿قَالَ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾؛ لمقابلة الفعل ﴿قَالُوٓاْ﴾، فإنَّ النَّظم عقد مقابلةً بين قولين متناقضين، قول الواثق بدين الله تعالى، وأنَّ الحقَّ قد بلج على لسانه، وقول المراوغ المكذِّب لدين الله تعالى، وأنَّ الباطلَ قد انفلج في لسانه.

توجيه المتشابه اللفظي في الحذف والذكر:

انقسام السَّحرةِ فريقين في إعلانِ الإيمانِ استدعى اختلاف النَّظم في الحذفِ والذِّكر

طوى النَّظم الكريم التَّصريح باسم فرعون في قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾؛ فلم يقل: (قال فرعون) كما ذكره في سورة الأعراف: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ﴾ [الأعراف: 123]، وسرُّ ذلك أنَّ القُرآن يُشير من خلال فنِّ الحذف والذكر إلى أنَّ المقابلة في الأعراف أمسَتْ واضحةً جليّةً بَيْنَ الحقِّ والباطل بأجلى صوره، إنها بَيْنَ ربِّ العالمين وفرعون، فلمَّا قال السحرة: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف: 121 - 122]، ذكر اسمَ فرعون، وأمَّا هنا فحذفه لعدم ذكره في المقابل، فهم نطقوا بالإيمان بربِّ هارون وموسى، وبناءً على ذلك فإننا نفهم أن كلًّا من فريقي السّحرة سلك طريقًا في إجابة فرعون غير طريق الفريق الآخر؛ وكان تعقيب النَّظم بالحذفِ والذِّكرِ ليُنبِّه على الفرق بين القولين.

الخبر والاستفهام جاءا للإنكارِ والتّوبيخ

توجيه القراءات القرآنيّة:

قَرَأَ الأصبهاني عن ورش عن نافع، وقنبل بخلفه عن ابن كثير، وحفص، ورويس عن يعقوب قوله تعالى: ﴿ءَامَنتُمْ﴾؛ على لفظ

الخَبَر[1]، وتوجيهه أنَّه خبرٌ مستعملٌ في التّوبيخ[2] والإنكار، وقَرَأَ الباقون ﴿ءَءَامَنتُمْ﴾ بهمزتين، الثّانيَة ممدودة والأولَى للاستفهام[3]، وهم على أصولهم في التحقيق والتسهيل، وهو للتّوبيخ والتّقريع؛ فاستوت القراءتان في كونهما محمولتين على التَّوبيخ والإنكار.

براعة التَّعبير بصيغة الماضي ﴿ءَامَنتُمْ﴾:

آثر النّظم صيغةَ الفعلِ الماضي: ﴿ءَامَنتُمْ﴾ دون أن يقول: (أتومنون)، وذلك لتأتي على معنى الخبريَّة والاستفهام، ولإلباسهم تهمة الخيانة، أي: أنتم آمنتم له في الماضي، وقد وقع ذلك منكم والآن أتيتم لتُكملوا الخيانةَ معه، فهو ليس إيمانًا طارئًا بل إيمان قديم، وهو ما يُؤكِّد أنَّ فرعون استعمل في خطابِه جميع الألفاظ الدَّالة على اتِّهام السَّحرة بأنَّ إيمانَهم ليس إيمانًا بل هو أمرٌ آخر بُيِّت بليلٍ.

المراوغون يبحثون عن أسباب إيقاع التُّهمة بالمخالفين

توجيه المتشابه اللفظيّ في اختيار حروف المعاني:

اختار النّظم الكريم حرفَ اللام في قوله تعالى: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ دون الباء فلم يقل: (به) كما في آية الأعراف ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [الأعراف: 123]، وذلك أنَّ الآية هنا كشفت عمَّا يجول في نفس فرعون من اتّهام السّحرة بأنَّهم آمنوا بشخص موسى لا بدعوته، مع أنَّ موسى متأخِّر في اللَّفظ! فآثر اللام، أي: آمنتم لأجله، وهنا تبدو المسألة شخصيَّة.

استنكر فرعون الإيمانَ بموسى في سياق، والإيمانَ بالله في آخر

والفريق الآخر من السّحرة لمَّا ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأعراف: 121]، كان ردُّ فرعون: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ [الأعراف: 123]، فتعدّى الفعلُ بالباء لا باللام، أي أنّه أنكر عليهم إيمانَهم بالله لا بموسى فحسب[4].

(1) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 421.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 263.
(3) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 421.
(4) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/ 672، والمثنى عبد الفتاح، الإيضاح والتقييد في إعجاز القرآن المجيد، ص: 241.

نكتةُ إيراد ظرف الزّمان ﴿قَبۡلَ﴾:

إيمان السّحرة بالله هو الجريمة التي استحقوا عليها العذاب والصّلب

فائدة ظرف الزّمان ﴿قَبۡلَ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾ الدّلالة على المنع لا على احتمال وقوع الإذن بالإيمان، فمعنى العبارة: من غير أن آذن لكم في الإيمان له، كما في قوله تعالى: ﴿لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ [الكهف: 109]، والحقيقة أنّها لن تنفد كلمات ربّي أبدًا، وكذلك الأمر هنا فإنَّ فرعون لن يأذن بتاتًا، لكنَّه ذكر ذلك من قبيل المبالغةِ في الإنكار.

ويصح أن تُحمل على التَّمويه على النَّاس، أي: لو طلبتم الإذن لأذنت لكم، ففيه إعلامٌ بغطرسته وجبروته، وأنَّ الإيمانَ باللّه تعالى متوقفٌ على الإذن منه، وهذا غاية ما تصله ألسنُ الطُّغاة من الجبروت في الملكوت.

نكتةُ اختيار جملة المصدر دون الاسم:

الإيماءُ إلى احتماليَّة وقوعِ الإذن بالإيمان تمويهًا وكذبًا

الموصول الحرفيّ: هو كل حرف أوِّلَ مع صلته بمصدر ولم يحتج إلى عائد، وقد اقترنت صلته هنا بالحرف ﴿أَنۡ﴾، في قوله تعالى: ﴿أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾؛ فيكون تأويله بالمصدر: (إذني لكم)، ولم يأتِ النَّظم (آمنتم له قبل إذني لكم) للتَّمويه عليهم بأنَّ الإذنَ قد يصدر عنه في المستقبل، وهذا في غايةِ السَّفالة في الكذبِ والمراوغة، ودلالتها على الهيمنة التي يُدار فيها اختيار الفرد والمجتمع الفرعونيّ؛ أن يجرؤ أحدٌ على شيء إلا أن يكون له إذن من فرعون.

بلاغةُ اختيارِ مفردة الإذن:

المجرمُ يُظهر نفسَه على أنَّه رحيمٌ بالعبادِ رؤوفٌ بالبلاد

استنكر فرعون أن يؤمن السَّحرة بموسى ﷺ فقال: ﴿قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾ وهي مقاربة منه وبعض إذعان[1]، فلما رأى فرعون إيمان السّحرة؛ اختلق علّة إعلانهم الإيمان قبل الاستئذانِ منه، وعدّ

(1) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 4/ 53.

ذلك جرأةً عليه، وأوهم أنّهم لو استأذنوه لأذن لهم، واستخلص من تسرعهم بذلك أنّهم تواطؤوا مع موسى من قبلُ؛ فأظهروا العجز عند مناظرته، ومقصد فرعون من هذا إقناع الحاضرين بأنّ موسى لم يأت بما يعجز السّحرة؛ إدخالًا للشّكّ على نفوس الذين شاهدوا الآيات[1]، وإنّما هو تواطؤ وخيانة من السّحرة، ولذلك حوَّل القضيَّة بين كونها مجابهةً لإظهار الحقِّ، إلى كونها مؤامرةً على النَّاس، وأنَّ السَّحرة كانوا أداة موسى ﷺ في ذلك.

دلالةُ اختيارِ مفردة ﴿لَكَبِيرُكُمُ﴾:

تعليقُ الهزيمةِ بالأوهامِ شِنْشِنَةٌ المغلوبين أمام العوام

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ﴾ جملة تعليليّة تحمل ملمح المكابرة والمناورة، للتّعمية على الحقّ وطمس معالمه، وقد دلّ لفظ: ﴿لَكَبِيرُكُمُ﴾ على معنى أنّه أَسْحَرُ منكم، وأعلمُ بفنون هذا الخداع البصريّ، الذي برع فيه السّحرة واشتهروا به، لا بمعنى الكبير شرفًا وقدرًا ومكانةً، يريد: أنّه أَسْحَرُهم وأعلاهُم درجةً في صناعتهم، فتكون كلمة (كبيركم) كنايةً عن المعلّم الأوّل والسَّاحر الذي تَركَنُ إليه السّحرةُ.

براعةُ استعمال الاسم الموصول:

الاستنتاج الباطل قد ينطلي على العوام لكنَّه لا يُحرِّك ساكنَ أفهام العلماء

الاسم الموصول (الذي) وأخواته ممَّا فيه (أل)؛ وُضعَ توصُّلًا إلى وصف المعارف بالجمل[2]، فقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ﴾، جاء فيه الوصف اسمًا موصولًا، وكبيركم معرّفٌ بالإضافة، فيكون الاسم الموصول قد أفاد تعريف الكبير بأنّه معلِّمُهُمُ السّحرَ، وأستاذُهم الذي يرجعون إليه، وفائدةُ استعمالِ الاسم الموصول بيانُ أنَّه هو الذي علَّمهم السِّحر دون غيره، فاتَّسمت وظيفة الاسم الموصول بالاختصاصِ، فإنَّ فرعون قد استخلص من الموقف أنَّ هناك سحرًا عظيمًا قام به السَّحرة، وسحرًا أعظم -

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 263 - 264.
(2) ابن جنّي، الخصائص: 1/ 321.

حسب ادِّعائه الكاذب - أتى به موسى عليه السلام، فنتيجة ذلك أنَّ الذي علَّم السِّحر هو الذي أتى بالسِّحر الأعظم، وهذا الاستنتاج الباطل قائمٌ على مهارة المراوغة والتَّدليس على النَّاس، ففيها أنَّ الطُّغاة يمتلكون أدوات إقناع العوام، لكنَّهم لا يستطيعون تحريك ساكن الأفهام لدى العلماء.

بلاغة الكناية عن الصفة:

من أفلس في الحجَّة لجأ إلى التُّهمة

قوله تعالى: ﴿عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ﴾ كنايةٌ عن صفة الخيانة، ففرعون كنَّى عن الخيانة التي كانت من وراء ظهره - فيما يُظهره للنَّاس - بهذا اللّون من التّعليم المريب، فكأنَّه يقول لهم: أنتم تواطأتم على ما فعلتم[1]، وأتيتم بما أتيتم به ليقع له النَّصر العظيم، فهي خيانةٌ عُقدت بالخفاءِ، ومؤامرةٌ جلبت البلاء.

دلالة ترتيب المفعولين:

الاتِّهامُ مصدرُ إلهامِ الطُّغاة وأصلُ أفكار البُغاة

فعل (علَّم) في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ﴾؛ أخذ مفعولين، وهو فعلٌ ماضٍ من أفعال اليقين، فاعله مستترٌ، والكاف مفعول به أوّل، و﴿ٱلسِّحۡرَۖ﴾ مفعول به ثانٍ[2]؛ وقد تقدَّم ذكر الضَّمير على السِّحر؛ للإيماءِ أنَّه تعليم خاصٌّ بهم، أي علَّمكم السِّحر على وجه الخصوص، وبعنايةٍ واهتمام، وهذا يُؤكِّد ما أثاره فرعون من الاتِّهام بالخيانة المدبَّرة.

بلاغةُ الفاء الفصيحة:

بناءُ التّهديدِ والوعيدِ على إيمانِ السَّحرة

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ﴾؛ هي (الفاء) الفصيحة، وهي التي حُذف فيها المعطوف عليه مع كونه سببًا للمعطوف؛ فسمّيت فصيحة؛ لأنها تفصح عن محذوف، وتفيد بيان سببيته، أو هي الدَّاخلة على جملة مسَبَّبة عن جملة غير مذكورة، وقد جاءت هنا

(1) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 4/ 33.
(2) الدعَّاس، إعراب القرآن: 2/ 264.

فصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدّر، تقديره: (إذا عرفتم ما قلت لكم، وأردتم بيان شأني فيكم ... فلأقطعنَّ)[1].

نكتةُ المبالغةِ:

المبالغةُ في الوعيدِ دليلُ امتلاءِ الجوفِ بالحَنَقِ الشَّديد

في قوله تعالى: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ﴾؛ استُعمِلَ القسم ونونُ التّوكيدِ الثّقيلة وتضعيف الفعل للمبالغة في الوعيدِ بعذابِ تقطيع أطرافهم؛ لأنَّه أراد من ذلك أن يجعلهم عبرة للنَّاس جميعًا؛ ثمّ إنّ أعدادهم كثيرة؛ فتقطيع أعضائهم من خلاف يقتضي تقطيع مئات الأطراف، وهذا بحدّ ذاته مبالغة في التّقطيع وإسرافٌ في الدّماء، ووحشيّة في الأداء؛ لأنّه عقاب جماعة كبيرة، وفئة كاملة من النَّاس لم تأت بذنب سوى أنّها سجدت للّه وآمنت به سبحانه.

بلاغةُ اختيار مفردة التَّقطيع بهذه الصيغة:

المبالغة في عذاب السّحرة عبرة للنَّاس

وفي قوله: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ﴾ بوزن (لأفَعِّلَنَّ)، وصيغة (التّفعيل) هي صيغة مبالغة؛ لتحقيق غرض التّخويف والصّدِّ عن الإيمان؛ إذ لجأ فرعون إلى اتّهام السّحرة بالخيانة، والوعيد بتقطيع الأطراف والصّلب، ولعلّ ذلك من أعظم ما يخطر ببال إنسان من شديد العذاب، والتقطيع: شدّة القطع، ومرجع المبالغة إلى الكيفية، وهي ما وصفه بقوله: ﴿مِّنْ خِلَافٍ﴾؛ أي مختلفة؛ بألَّا تقطع من جانب واحد بل من جانبين مختلفين؛ أي تقطع اليد ثمّ الرجلُ من الجهة المخالفة لجهة اليد المقطوعة، ثم اليد الأخرى، ثم الرّجل الأخرى[2].

بلاغةُ المجاز العقلي:

الآمر والمأمور شريكا الجريمةِ والطُّغيان

أسند فرعون التَّقطيع لنفسه في قوله تعالى: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم﴾، مع أنّه لن يقوم بذلك بنفسه، فهذا إسناد مجازيّ، فالأمر لفرعون، والتّنفيذ للجند، فقوله: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ

(1) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 17/ 381.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 264.

﴿وَأَرْجُلَكُم﴾ مجاز عقليّ علاقته السّببيّة، لأنّ فرعون بيده الحكم والأمر، فيأمر بأن تقطّع أيديهم وأرجلهم فيكون ما أمر به هو سبب وقوع العقاب عليهم.

توجيه المخصوص بالذِّكر:

الأيدي والأرجل التي لا تخدم الظَّالم يقطعها

خصّ فرعون الأيدي والأرجل بالتقطيعِ في قوله تعالى: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾؛ لأنّها هي أعضاء الحركة والتّنقّل، ولأنّ السَّاحر تجوّل بقدميه ليستحصل على السّحر، وعمل بيديه ليصنع السّحر ويأتي به، فلمَّا آمنوا بموسى توعّدهم بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف؛ والظَّاهر: أنّ القطع على هذه الكيفيّة كان شعارًا لقطع المجرمين، فيكون ذكر هذه الصفة حكاية للواقع لا للاحتراز عن قطع بشكل آخر؛ إذ لا أثر لهذه الصّفة في تفظيع، ولا في شدّة إيلام، إذا كان ذلك يقع متتابعًا[1].

نكتة تقديم الأيدي على الأرجل:

الأيـــدي أصـلُ الأمـر في حركةِ الإنسانِ

قُدِّم ذكرُ الأيدي على الأرجل في قوله تعالى: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم﴾؛ لأنَّ الأيدي أخصّ بالقطع من الأرجل؛ لأنّها هي العضو الفاعل غالبًا؛ فهؤلاء السّحرة ألقوا حبالهم وعصيّهم بأيديهم؛ فلمَّا آمنوا بالله توعّدهم بقطع أيديهم لأنَّهم ألقوا الحبال والعصيّ بالأيدي، وأضاف إليها الأرجل؛ لأنّها هي العضو السَّاعي والسَّائر في الأرض.

نوعُ ﴿مِّنْ﴾ ودلالتها:

تقطيع الأعضاء بالمخالفة إرهابٌ وتخويفٌ

حرف ﴿مِّنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنْ خِلَافٍ﴾؛ ابتدائية كأن القطع ابتدأ من مخالفة العضوِ العضوَ وهي مع المجرور بها في حيز النَّصب على الحال؛ أي لأقطعنّها مختلفات[2]؛ لأنها إذا خالف بعضها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 264.
(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 4/ 33.

بعضًا فقد اتصفت بالاختلاف[1]، فلا يكون للعضو المقطوع قيمة؛ أو تحديد؛ وإنّما تكون الأهميّة والابتداء في ذلك للمخالفة حصرًا، فيكون مخالفًا للعضو المقطوع قبله، فدلّ قوله: ﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ على عدم المبالاة بقيمة أيديهم وأرجلهم، فالمهم في التّقطيع أنّها من خلاف، وفيه ما فيه من التبشيع والتّخويف.

نكتةُ المبالغةِ في صيغة ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾:

كـثرة التّصليب وشـــدّة دقّ الأجـســاد في الجذوع

قوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ والتّصليب: مبالغة في الصّلب، والصّلب واحد؛ هو ربط الجسم على عود مُنتصب أو دَقُّهُ عليه بمسامير، وأمَّا سرّ المبالغة فيه فراجع إلى كثرة من سيُصلب من النَّاس في وقت واحدٍ، فقد جمع فرعون كلّ السّحرة المعروفين في ذلك اليوم، أو قد ترجع المبالغة إلى الكيفية أيضًا بشدّة الدقّ على الأعواد[2].

توجيه المجاز العقلي:

أوامر فرعون هي سبب التّصليب

في قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ مجاز عقلي لإسناد الفعل إلى غير فاعله، فوعيد فرعون للسّحرة بتقطيع أطرافهم، وصلبهم، لن يقوم به فرعون بنفسه، إنّما سيكون سببًا في وقوعها؛ لأن فرعون سيأمر بعضًا من جنده بفعل ذلك، وقرينة ذلك استحالة أن يفعل فرعون ذلك بنفسه، ففرعون يأمر وينهى، هذا أوّلًا، ثم إنّ هذه العملية تتطلّب من القوة والجهد ما يتعذر على الواحد إنجازها، فهو مجاز عقليّ علاقته السّببية.

التَّصليبُ ﴿فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ بين الحقيقة والمجاز:

الـصّـلـب في جذوع النّخل أو عليها

قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ يحتمل أن يكون حقيقة، وفي التفسير أنه نقر جذوع النّخل حتى جوّفها ووضعهم فيها

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 77.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 265.

فماتوا جوعًا وعطشًا وكمدًا، ويحتمل أن يكون مجازًا وله وجهان: **أحدهما:** أنّه وضع حرفًا مكان آخر، والأصل على جذوع النّخل، (في) بمعنى (على) مجازًا، من حيث إنّه شبّه تمكّن المصلوب بالجذع، بتمكن المظروف في الظّرف وهذا هو المشهور، **والثاني:** أنّه شبّه تمكُّنهم بتمكّن من حواه الجذع واشتمل عليه[1].

بلاغة الاستعارة المكنيّة التّبعيّة:

تصويرُ حَنَقِ فرعون بإرادته أن تكون الجذوع قبورًا للسّحرة

قوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾، في الكلام استعارة مكنيّة تبعية، وإجراؤها: أنّه شبّه استعلاء المصلوب على الجذع، بظرفيّة المقبور في قبره، فشبّه تمكن المصلوب في الجذع بتمكن الشّيء الموعى في وعائه، فلذلك قيل: ﴿فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾[2]، فتكون جذوع النخل هي قبورهم.

أو نقول: إنَّ الحرف (في) استعارة تبعية تابعة لاستعارة متعلق معنى (في) لمتعلق معنى (على)، فعدل عن حرف الاستعلاء إلى حرف الظّرفيّة تشبيهًا لشدّة تمكّن المصلوب من الجذع بتمكن الشّيء الواقع في وعائه، وتعدية فعل ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ بحرف ﴿فِي﴾ مع أنّ الصّلب يكون فوق الجذع لا داخله؛ ليدلّ على أنّه صلب متمكن يُشبه حصول المظروف في الظّرف[3].

وفي هذه الاستعارةِ تصويرٌ لشدَّة حنقِ فرعون على السَّحرةِ، حيث إنَّهم يريدهم في كرانيب النَّخل، بعد أن يشُدَّ وثاقهم فيها.

سرُّ عطفِ التَّصليبِ على التّقطيع:

التَّقطيع لإنشاءِ العذابِ والتَّصليب لإزهاقِ الرّوح

خصَّ فرعون عليه اللعنة نوعَي العذاب التَّقطيع والتَّصليب، فأمَّا التَّقطيع فلغرض بيان شدّة الآلام، وقد يؤدّي إلى موت صاحبه أو

(1) السمين الحلبي، الدّرّ المصون: 8/ 76.
(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 78.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 265.

لا يؤدّي إلى ذلك؛ فيأتي التّصليب، والتّصليب لغرض العبرة لمن مرّ عليهم فشاهدهم وعلم ما فعلوه، فيموت من لم يمت بتقطيع أطرافه، وفي الجمع بينهما ترقّ في شدّة العذاب والعقوبة؛ لِأَن الغَرَض من الصلب التشهير[1].

توجيه المتشابه اللّفظي في استعمال حروف العطف:

(الـواو) للجمع
و(ثم) للتراخي

قوله في سورة الأعراف: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأعراف: 123 - 124]، على حين في سورة طه: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾، وقال في سورة الشّعراء: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [الشعراء: 49].

فاختصت سورة الأعراف بـ ﴿ثُمَّ﴾ [الأعراف: 124] والأُخْريانِ بـ (الواو)؛ وذلك لأنّ السورتين اللتين اختصّتا بـ (الواو) هما المبنيتان على الاقتصاص الأكثر، والبسط الأوسع، و(الواو) أشبه بهذا المعنى؛ لأنّه يجوز أن يكون ما بعدها ملاصقًا لما قبلها؛ كالتّعقيب الذي يفاد بـ(الفاء)، ويجوز أن يكون متراخيًا عنه كالمهلة التي تفاد بـ (ثمّ)؛ لا بل يجوز أن يكون ما بعدها مقدَّمًا على ما قبلها، ومجامعًا لها؛ إذ هي موضوعة للجمع ولا ترتيب فيها، فكانت (الواو) أشبه بهذين المكانين، و(ثم) تختص بأحد المواضع التي تصلح (الواو) لجميعها، فلما كان مقتصرًا بها على بعض ما وضعت له (الواو)، استعملت حيث اختصرت الحال، فلذلك خصت ﴿ثُمَّ﴾ [الأعراف: 124] بسورة الأعراف، و(الواو) بالسورتين الأخيرتين[2].

(1) الكفويّ، الكُلّيّات، ص: 679.
(2) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/ 678 - 679.

دلالة عطف جملة ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾ على جملة جواب القسم:

الخطابُ مباشرٌ للسَّحرةِ بالعذابِ الحسيِّ وإيماءٌ للنَّاس بالعذابِ المعنويِّ

عطفت جملة: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾ على جملة: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ﴾ بحرف الواو لإضافة العذاب المعنوي بعد العذاب الحسي، والمعنى (أنّ علمكم بشدّة عذابي سيكون مع تقطيع أيديكم وأرجلكم وتصليبكم، وما في ذلك من التّخويف والتّرهيب، ممَّا سيكون من الشّدة والبلاء ساعة التّقطيع والتّصليب)؛ فهو خطابٌ مباشرٌ للسَّحرةِ، وخطابٌ إيمائيٌّ للنَّاس، كأنَّه قال: (من لم يعلم بعد هذا العذاب مَنِ الأشدُّ عذابًا؛ فلينتظر مصير السَّحرةِ).

بلاغةُ المقابلةِ بلفظ ﴿أَيُّنَآ﴾:

تحدّي فرعون بإظهار قوته وجبروته لتحقير المقابل

أراد فرعون بقوله: ﴿أَيُّنَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا﴾؛ نفسه وموسى ﷺ بدليل قوله: ﴿لَهُۥ قَبْلَ﴾ واللام مع الإيمان في كتاب الله لغير الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 61]، وفيه دليل على اقتداره وقهره، وما أَلِفَهُ من تعذيب الناس بأنواع العذاب، وتوضيع لموسى ﷺ، واستضعاف له مع الهزء به؛ لأن موسى لم يكن قط من التعذيب في شيء[1].

ولعلّه أراد بالمشتركَيْن نفسَه وربّ موسى سبحانه لأنّه عُلِمَ من قولهم: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ أن الذي حملهم على الإيمان به هو دعوة موسى إلى التّوحيد والإيمان بالله سبحانه؛ أي وستجدون عذابي أشد من العذاب الذي حُذِّرتُموه، ويدل على أن ذلك مراد فرعون ما قابل به المؤمنين قوله: ﴿أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ بقولهم: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾؛ أي خير منك وأبقى عملًا من عملك، فثوابه خير من رضاك وعذابه أشدُّ من عذابك[2].

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 78.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 265.

نكتة تعليقِ فعل ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾ عن العمل:

شدَّةُ الكفرِ تورِّث مظنَّةَ امتلاكِ المستقبل

فعل ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا﴾ معلَّقٌ عن العمل لوقوع الاستفهام في آخره، والمعنى: (ولتعلمنّ ما سأفعل بكم من التنكيل والتعذيب، حينها ستعلمون شدّة عذابي، وأنّه أعظم وأكبر من عذاب ربّكم الذي تؤمنون به)، فالعلم سيكون مَحَطَّ اختبارِ مَن سيكون أشدَّ عذابًا من الآخر، وهذه هي كلمات التّحدّي التي أطلقها فرعون؛ ولعلّ هذا أقصى ما يستطيع فعله؛ ليذيق السّحرة المارقين عن سبيله أشدّ العذاب.

دلالة حذفِ المسند إليه:

تطرف فرعون في الإرهاب والتّخويف

دلَّ لفظُ ﴿أَشَدُّ﴾ مع المسند إليه المقدّر (هو) على المبالغة بتنوّع أصناف العذاب التي لم تُذكر في تهديد ووعيد فرعون من التقطيع والتّصليب، ليأتي بزيادة في إرهاب المُخاطبين، والوعيد بالتّنكيل بهم، فقد حصر شدّة عذابه على أنّها لا مثيل لها، متحدّيًا إله موسى كِبْرًا وعُتوًّا، بعد ما رأى منه المعجزة العظيمة.

دلالة لفظ ﴿عَذَابًا﴾:

إخفاء أصناف العذاب والتّلويح بها

لفظُ: ﴿عَذَابًا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا﴾ دلّ على الجانب الخفيّ من العذاب، ممَّا لم يُحكَ في السّياق القرآني الذي هدّد به فرعون، وتوعّد السّحرةَ الذين آمنوا، وفائدة ذلك للمعنى أنّ فرعون سلك أسلوبًا آخر في التّهديد والوعيد؛ أخفى فيه خيارات العذاب، وهذا ما ينعكس سلبًا على نفوس المخاطبين زيادة في التخويف.

بلاغة المجاز العقلي:

إصرار فرعون على التنكيل بالسّحرة

دلّ فحوى الخطاب في قوله: ﴿أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ على أنّ فرعون قصد في خطابه هذا أنّه هو من سيقوم بأعمال التّعذيب بنفسه، ليذيقهم شدّة ذلك، وهذا مجاز عقليّ علاقته السّببيّة؛

لأنّ فرعون حقيقة سيكون سببًا في اتخاذه قرار تعذيبهم، وأنّ عذابهم سيكون من قِبَل جنود فرعون أو مَن سيؤمر بهذا العمل، وأفاد هذا المجاز العقليّ بيان إصرار فرعون على التّنكيل بالسّحرة تحت نظره وإشرافه.

دلالة كثرةِ المؤكِّدات:

تصوير الاضطراب النّفسيّ لغطرسة فرعون وجبروته

دلّت كثرةُ المؤكِّدات على لسان فرعون في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ﴾ و﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ﴾ و﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ و﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾ و﴿أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ على بلاغة القرآن الكاشفة عن غطرسة فرعون وجبروته، وهذه التأكيدات دلّت على الاضطراب النّفسي الذي أصاب فرعون عند سجود السّحرة وإعلانهم الإيمان، وعدم الاكتراث بفرعون وما يتوعّد به، فجاءت التّأكيدات المتوالية في كلامه على شديد العذاب الذي سيصيب من خرج عن طوعه لغايات منها: إظهار جبروته في لحظة الفشل أمام النَّاس، في يوم الزّينة الذي يحشر فيه النَّاس جميعًا، وتوعّد السّحرة بأعظم العذاب؛ طلبًا لصدّهم ورجوعهم عن قرارهم، وإرضاء لجبروته الذي تبدّد بطريقة غير متوقّعة.

بلاغة التّذييل:

تصعيد فرعون لخطاب الانتقام والعذاب

قوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ تذييل مقرّر لمضمون ما قبله، وتضمّن هذا التّذييل زيادة في التّوكيد، واختصارًا لجميع ما ذُكر من التّهديد والوعيد بالعذاب والصَّلْب؛ فقال: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ على غرار ما سبق من التّوكيد في قوله: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ﴾ و﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ والإصرار على سوء الانتقام.

إيثار صيغةِ المضارع في الأفعال:

لم يكن الوعيد بالعذابِ بل باستمراره وعدم طروِّ الرَّحمة

إيثار المضارع في الجمل الثّلاث في قوله: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ﴾ و﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ و﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾؛ لأنّ وقوع الوعيد يكون آتيًا بعد النّطق به، وأفاد المُضارع التّجدّدَ في طرائق التّعذيب؛ لأنّه حدّد أوّلًا تقطيع

الأطراف والصّلب، ثُمّ توعّد بأشدّ العذاب، ولعلّ هذا ما لم يُصرّح بتفاصيله، فيكون المضارع قد دلّ على تجدّد حالات التّعذيب وطرائقه.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الجُذوعُ والأعجاز:

أعجاز النّخل أصولها، وجذعها جميع ساقها

وردت أعجاز النخل مع الخاوية والمنقعر، ومعنى الخاوية والمنقعرة واحد، يدلك على ذلك قوله تعالى في قصة قوم عاد: ﴿صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾ [الحاقة: 7]، وقال في موضع آخر يذكر هلاكهم أيضًا: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠﴾ [القمر: 20]، فمعنى الخاوية والمنقعر في الآيتين واحد، وهي المنقلعة من أصولها حتى خوى منبتها، ويقال انقعرت الشَّجَرة، إذا انقلعت[1]، و﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٍ﴾ [القمر: 20]: أصول نخل[2]، و﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾ [الحاقّة: 7]؛ متآكلة الأجواف[3]، أما جذع النّخل فهو السَّاق كلّه.

(1) الأزهريّ، تهذيب اللغة: 1/ 264.
(2) الكفويّ، الكُلّيّات، ص: 151.
(3) الكفويّ، الكُلّيّات، ص: 437.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والثلاثون،
سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والثلاثون، سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 32 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-74-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 32 : المجلد الثاني والثلاثون، سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-74-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4565158 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»